تمهيد

بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيم

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ وأشهدُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأنَّ سيدّنَا محمّداً الصادقَ الأمينَ خاتمَ الأنبياءِ والمرسلينَ عبدهُ ورسولَهُ بلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأمَّةَ، وكشفَ اللهُ بهِ الغمَّةَ. وأشهدُ أنَّ القرآنَ المحفوظَ من عندِ اللهِ حقٌّ وكلَّ مابينَ دفتيهِ إجمالًا وإحكاماً وتفصيلًا حقٌّ والأنبياءَ والرسلَ الكرامَ حقٌّ، والكتبَ والصحفَ المنزلةَ من عندِ اللهِ حقٌّ، والجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، والصراطَ حقٌّ، والميزانَ حقٌّ، والحسابَ حقٌّ، والملائكةَ حقٌّ، واليومَ الآخرَ حقٌّ، وأنَّ اللهَ يبعثُ مَنْ في القبورِ.

اللهمَّ صلِّ صلاةَ جلالٍ وسلمْ سلامَ جمالٍ على حضرةِ حبيبكَ سيدِنا محمدٍ، وأغشِهِ اللهمَّ بنورِكَ كمَا غشِيَتْهُ سحابَةُ التجلياتِ فنظرَ إلَى وجهكَ الكريمِ، وبحقيقةِ الحقائقِ كلَّمَ مولاهُ العظيمَ الذي أعاذهُ من كلِّ سوءٍ، اللهمَّ فرّجْ كربَنا كما وعدتَ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل: ٦٢ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينَ.

وبـــعـــد:

يعتبرُ الجيلُ الذي أنَا منهُ خاتمةَ الاستِدارةِ الثالثةِ من تاريخِ ليبيا الإسلامية، ورغمَ أنَّ الاستداراتِ التاريخيَّةَ تتداخلُ ظاهراً وتتكاملُ إلاَّ أنَّ الحقيقةَ هيَ غيرُ ذلكَ تماماً. فإنَّ انتهاءَ استدارةٍ يعني سدلَ الستارِ كلِّيًّاً عليهَا وعلى مَا قبلها بالضرورةِ وقطعَ الخطوطِ ظاهرةِ الصلةِ بينهَا وبينَ التي تليهَا؛ فتتغيَّرُ المفاهيمُ والآراءُ والمُسلّماتُ والبديهياتُ والقيمُ. وتطالُ طبيعةَ التغييرِ حتَّى العاداتِ البشريّةَ من أكلٍ وشربٍ ونومٍ وسعيٍ، والإنسانيةَ من تربيةٍ وسلوكٍ ومعانٍ، لتبدأَ من جديدٍ بما يوافقُ مستلزماتِها وظروفَها. حتى أنّكَ لوْ جمعتَ بينَ اثنينِ من بنِي جنسِنا من استدارتينِ مختلفتينِ ربمَا لا يفصلُ بينَهما إلا قدرُ انتهاءِ هذهِ وابتداءِ تلكَ، هالكَ بل أذهلكَ ما بينهمَا من فروقٍ زمنيَّةٍ ومكانيَّةٍ وإنسانيَّةٍ.

وهذا هوَ معنَى قولِهِ ﷺ وآلِهِ في خطبتِهِ في حجَّةِ الوداعِ على ما أخرجَهُ البخاريُّ ومسلمُ والنسائيُّ وأبو داود وأحمدُ: إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئتِهِ يومَ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ ا.هـ.

نعمْ... تحيدُ بصرَكَ فيصطدمُ بجدارِ الغيبِ وتجدُّ في سيرِكَ لتجدَ نفسَكَ في النهايةِ تمشِي في مكانِكَ، وتصيخُ سمعَكَ لتنصُتَ إلَى نفسكَ لا غيرَ، نعم... يحدثُ كلُّ هذا ما لم يمهّدِ السابقُ الطريقَ للاحقِ، ويمدَّ لهُ يدَهُ من ظلماتِ الماضِي منيراً للطريقِ هادياً ومبيناً للمعالمِ.

وأرَى من مقعدِي الذي أجلسُ عليه الآنَ، وأوراقِي مبسوطةً أمامِي، والقلمُ في يدِي يحيلُ بياضَهَا الأعجمَ سواداً ناطقاً بعينِي الباصرةِ أنجالنَا، ممَّنْ سيعمرُ هذه الرقعةَ من الأرضِ في استداراتٍ قادمةٍ، تحفرُ أظافرُهُم الحجرَ وتقلبُ أكفُّهُم الترابَ بحثاً عن جسورٍ تصلُ يومَهُم وغدَهُم بأمسِهِم. وأعتقدُ أنَّ هذه الموسوعةَ ستكونُ بإذنِ اللهِ لهم جسراً يعبرونَ عليهِ إلَى آبائِهِم وأجدادِهِم يجالسونَهُم ويحادثونَهُم ويأخذُوْنَ عنهُم ويتّكئُونَ على زندِ خبراتِهِم القويةِ وساعدِ تجاربِهِم الصقيلةِ بحلوِها ومرِّهَا، ويفخرونَ بانتسابِهِم إليهم، ويستعينُوْنَ بتراجمِهِم في درسِهِم وبحثِهِم.

وعلمُ التاريخِ له منزلةٌ مميزةٌ في علومِ الإسلامِ، إذ رفعَ الشيخُ جارُ اللهِ المكّيُّ في كتابِهِ «تحقيقِ الصفا» حديثاً إلَى الرسولِ ﷺ وآلِهِ يقولُ: مَن أرّخَ مؤمناً فكأنمَا أحياهُ، ومَن قرأَ تاريخَهُ فكأنما زارَهُ، ومَن زارَهُ استوجَبَ رضوانَ اللهِ. وحقٌّ على المزورِ أن يُكرمَ زائرَهُ ا.هـ.

وقالَ مصعبٌ الزبيريُّ: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بأيامِ الناسِ منَ الشافعيِّ يُروَى عنهُ أنهُ قامَ على تعلمِ أيامِ الناسِ والأدبِ عشرينَ سنةً ا.هـ.

ونقلَ القاضِي عياضٌ في المدارِكِ، وكذلكَ المواقُ في سننِ المهتدينَ، والمقري في أزهارِ الرياضِ، عن الإمامِ أبي حنيفةَ قولَهُ:

الحكاياتُ عن العلماءِ ومحاسنِهِم أحبُّ إليَّ من كثيرٍ من الفقهِ، لأنهَا آدابُ القومِ ا.هـ.

وقالَ ابنُ عبدِ البرِّ في الاستذكارِ: معرفةُ أعمارِ العلماءِ والوقوفُ على وفياتِهِم من علمِ خاصَّةِ أهلِ العلمِ، وأنهُ لا ينبغِي لمَنْ وسمَ نفسَهُ بالعلمِ جهلُ ذلكَ ا.هـ.

وقالَ الإمامُ الغزاليُّ: إذا تعذَّرَتْ رؤيتُهُم ومصاحبَتُهُم، فلا شيءَ أنفعُ للقلوبِ والنفسِ من سماعِ أحوالِهِم ومطالعةِ أخبارِهِمُ، وما كانُوا عليهِ من الجهدِ الجهيدِ في العبادةِ ا.هـ.

ونقلَ الحافظُ السخاوي عن أبي بكر بن خميس أنهُ قالَ:

إنَّ أحسنَ ما يجبُ أن يُعتنَى بهِ، بعدَ الكتابِ والسنَّةِ، معرفةُ الأخبارِ وتقييدُ المناقبِ والآثارِ. ففيهِ تنبيهٌ على الذينَ يجبُ أن تتبعَ أخبارهُم، وتشاهدَ محاسنهُم، ليكونُوا كأنهُم ماثلُونَ بين عينيْكَ معَ الرجالِ، فيجِدُّ في الطلبِ ليلحقَ بهِم ا.هـ.

وقالَ الشيخُ الأرجاني:

إذَا علِمَ الإنسانُ أخبارَ من مضَى ... توهَّمْتَهُ قد عـاشَ من أوَّلِ الدهرِ
وتحسبُهُ قد عـاشَ آخرَ عمرِهِ ... إذا كانَ قد أبقَى الجميلَ من الذكرِ
وقد عاشَ كلَّ الدهرِ مَن كانَ عالماً ... حليماً كريماً، فاغتنمْ أطولَ العمرِ

ونقَلَ الشيخُ محمّدُ بنُ مخلوفٍ في شجرةِ النورِ الزكيَّةِ عن بعضِ العلماءِ قولَهُ:

دراسةُ حياةِ الأجدادِ تربّي أخلاقَ الأبناءِ والأحفادِ، لمَا فيهَا منَ الحكمةِ البالغةِ الحسنةِ والموعظَةِ المستحسنَةِ ا.هـ.

وقالَ الشيخُ عبدُ القادرِ التميميُّ في الجواهرِ المضيئَةِ في طبقاتِ الحنفيةِ:

اعلمْ أنَّ في تراجمِ العلماءِ فوائدُ نفيسةٌ ومهمَّاتٌ جليلةٌ، منها معرفةُ مناقبِهِم وأحوالِهِم، فيتأدَّبُ بآدابِهِم ويقتبسُ من محاسنِ آثارِهِم، ومنهَا معرفَةُ مراتبِهِم وأعصارِهِم، فينزلُونَ منازلهُم، ولا يقصرُ بالعالِي في الجلالةِ عن درجتهِ، ولا يرفَع غيرَهُ عن مرتبتِهِ ا.هـ

وقالَ المقريزيُّ في القلائدِ: إنَّ معرفَةَ علمِ التاريخِ المشتملِ على علمِ الأنسابِ من الأمورِ المطلوبةِ والمعارفِ المندوبَةِ، لما يترتَّبُ عليهِ من الأحكامِ الشرعيَّةِ والمعارفِ الدينيةِ ا.هـ.

ويقولُ أميرُ البيانِ شكيبُ أرسلان:

إنَّ حفظَ التاريخِ هو الشرطُ الأولُ لحفظِ الأممِ ونموِّهَا؛ وإنَّهُ لا يُتصوَّرُ على وجهِ الكرةِ وجودُ أمّةٍ تشعرُ بذاتِهَا، وتعرَفُ نفسَهَا، إلاَّ إذَا كانَت حافظةً لتاريخِهَا، واعيةً